بمناسبة عيد العمال اليوم :

واجبات الانسان ...

للزعيم الايطالي يوسف مزيني

بقلم الأستاذ عامر عبد الوهاب

نشر مزيني هذا المقال عام ١٨٦٠ موجهاً كلامه إلى الطبقة العاملة في إيطاليا قال : أود أن أتحدث إليكم عن واجباتكم ، وأود أن أتحدث إليكم كما يوحي إلى قلبي عن أقدس ما نعرف من الأشياء : عن الله سبحانه تعالى ، وعن الإنسانية والوطن والأسرة . اصغوا إليّ إصغاء محبة ، كما سأتحدث إليكم حديث مودة . إن كلماتي لهي كلمات اليقين الذي صهرته السنون الطوال التي قضيتها في كد ونظر ودرس . واعلموا أني أبذل قصارى جهدي في تأدية الواجبات التي سأشرحها لكم وسأستمر في تأديتها إلى آخر رمق من حياتي . قد أخطئ ولكن قلبي متشبع بالحق . قد أخدع نفسي ولكني لن أخدعكم ، لذلك أرجو أن تستمعوا إليّ كأخ ، ولكم أن تحكموا بحرية فيما بينكم إن كنت أتكلم بلسان الحق . واهجروني إذا ما شعرتم أني أنطق عن الهوى ، ولكن اتبعوني وسيروا على نهج خطتي إذا ما تبين لكم أني رسول صدق مبين . إن الخطأ بلية تستحق الإشفاق ، ولكن إذا عرف الإنسان الحق ولم يهتد بهديه في أعماله ، فذلك جرم تستنكره السموات والأرض !

لماذا أتحدث إليكم عن واجباتكم قبل أن أتحدث إليكم عن حقوقكم ؟ لماذا وأنتم تعيشون في مجتمع يبتنى كله الإجحاف بكم طوعاً أو كرهاً ، وفيه يحرم عليكم دواماً أن تمارسوا الحقوق التي تخص الإنسان ، والذي كتب فيه أن يكون البؤس نصيبكم ، وما يعرف بالسعادة من حظ غيركم من الطبقات ؟ لماذا أخاطبكم عن التضحية لا عن الغلبة ، أخاطبكم عن الفضيلة والتهذيب الخلقي والتربية لا عن الرفاهة المادية ؟ هذه مسألة لا بد لي أن أشرحها قبل أن أتابع حديثي ، لأنه هنا يتبين الفارق الحاسم بين نظريتنا وبين النظريات الأخرى التي تشيع الآن في أوربا . هذا فضلاً عن أنها مسألة يضطرم بها العقل المتبرم ، عقل العامل المتألم !

« نحن فقراء مستعبدون أشقياء ، فتحدث إلينا عن أحوال أنعم من حالنا ، وكذلك تحدث إلينا عن الحرية والسعادة . تبئسنا إن كان مقضياً علينا أن نذوق البلاء إلى الأبد ، أو أننا سنترفه بدورنا . توجه بحديث الواجب إلى سادتنا ، إلى الطبقات المتحكمة فينا والتي تعاملنا معاملة الآلات ، والتي تحتكر لنفسها الخيرات التي هي حق للجميع . تحدث إلينا عن الحقوق وعن الوسائل التي تؤيد هذه الحقوق ، كما تحدث إلينا عن قوتنا . انتظر حتى نظفر بمكانة يعترف بها ، وحينئذ يجمل بك أن تخاطبنا عن الواجبات والتضحية »

هذا ما يقوله كثير من رجالنا العاملين وهم يتابعون الأساتذة والهيئات التي تساير ميولهم . هم ينسون شيئاً واحداً فقط ، ذلك أن النظرية التي يثيرونها قد دان بها الناس منذ خمسين عاماً دون إحداث أي أثر من الاصلاح المادي في حالة الشعب العامل .

إن كل ما حدث في الخمسين عاماً الماضية في سبيل الخير والفلاح ضد الحكومات المطلقة والأرستقراطية الوراثية ، إنما حدث باسم حقوق الإنسان ، باسم الحرية كوسيلة ، وباسم الصالح العام كغاية الوجود ، فكل أحداث الثورة الفرنسية ، بل وجميع الثورات التي تبعتها وقلدتها كانت نتائج (إعلان حقوق الانسان). وإن جميع مؤلفات الفلاسفة الذين مهدوا لها كانت تقوم على نظرية الحرية وعلى قاعدة تعريف كل فرد ما له من الحقوق . إن جميع المدارس (المذاهب) الثورية نادت بأن الانسان قد خلق للسعادة ، وبأن له الحق في أن يسعى لها بكل ما يملك من الوسائل ، وأن لا حق لغيره في أن يصده عن هذا المسعى ، كما أن له الحق في أن يزيل كل ما يصادف من العوائق في هذا الطريق . ولقد زالت العوائق وتحققت الحرية ودامت سنين في بلاد كثيرة ولا تزال كائنة في البعض ، فهل تحسنت حال الشعب ؟ وهل حققت الملايين التي تعيش بكدحها اليومي أتفه نصيب من الهناءة التي رجوها والتي وعدوا بها ؟

كلا ، فحالة الشعب لم تتحسن ، بل لقد زادت ولا تزال تزيد سوءاً في كل بلد تقريباً ، وعلى الأخص هنا (في إيطاليا) ، حيث أسجل أسعار حاجيات المعيشة التي أخذت في الارتفاع ، وأجور الطبقة العاملة التي هبطت في كثير من فروع الصناعة ، بينما

السكان آخذون فى الازدياد .

ولقد اشتدت حال العمال زعزعة واضطراباً فى كل بلد تقريباً كما ازدادت أزمات العمل التى قضت بالعطل والخمول على آلاف من العمال ، وإن الزيادة السنوية فى تعداد المهاجرين من قطر إلى قطر ، ومن أوربا إلى النواحى الأخرى من العالم ، والزيادة المستمرة فى عدد الجمعيات الخيرية ، والزيادة فى مخصصات الفقراء ومساعدات المعوزين ، كل أولئك كاف فى إثبات ما نقول ، والشاهدان الأخيران يدلان كذلك على أن العناية العامة آخذة فى التيقظ لآلام الشعب ، ولكن عجزهم عن تخفيف هذه الآلام إلى أى حد محسوس يدل على استمرار مروع فى شيوع الفاقة بين الطبقات التى يجهدون فى معاونتها

ومع ذلك فالواقع أنه حدث فى الخمسين عاماً المنصرمة أن زادت ينابيع الثروة العامة ، وكثرت خيرات الحياة ، وتضاعف الإنتاج ، واشتد نشاط التجارة ، واتسعت دائرتها وسط الأزمات المتلاحقة التى لا مفر منها إذا انعدم النظام . كما أن المواصلات أصبحت مأمونة وسريعة فى كل مكان تقريباً ، وهبطت أسعار السلع بسبب انخفاض أجور النقل . ومن جهة أخرى ، فنحن نرى الآن كيف أن فكرة الحقوق المتأصلة فى الطبيعة الإنسانية أضحت مقبولة على العموم .

نعم مقبولة ، ولكن لفظاً وخداعاً ، حتى عند أولئك الذين يسعون فى اجتنابها فعلا . فلما ذا لم تتحسن حال الشعب ؟ ولما ذا نرى استهلاك المنتجات بدلا من أن يكون مقسطاً على السواء بين جميع أعضاء المجتمع الأوربى نراه محصوراً فى أيدى فئة قليلة تكوّن أرستقراطية جديدة ؟ ولما ذا نرى الانتعاش الذى أصاب التجارة والصناعة لم يؤد إلى يسر الأكثرية ، بل إلى ترف الأقلية ؟

إن الجواب يتضح لأولئك الذين ينعمون النظر قليلا فى الأشياء . فالناس نتاج التربية . وهم فى سلوكهم يصدرون عن مبدأ التربية الذى طبعوا عليه ؛ فالرجال الذين ألهبوا نيران الثورات حتى اليوم إنما أثاروها بوحى فكرة حقوق الفرد . وها قد حققت هذه الثورات أمنية الحرية : الحرية الشخصية ، وحرية التعليم ، وحرية الاعتقاد ، وحرية التجارة ؛ بل الحرية فى كل شىء ولكل إنسان ولكن ما فائدة إعلان الحقوق لمن لا يملك وسيلة لاستخدامها ؟ وماذا تعنى حرية التعليم لأولئك الذين لا يجدون وقتا أو واسطة للانتفاع بها ؟ أو حرية التجارة لمن لا يملك شيئا يتاجر به ، لا رأس المال ولا النسيئة (الائتمان) ؟ بل لقد حدث فى جميع البلاد التى أعلنت فيها هذه المبادىء أن المجتمع كان يتكون من فئة تمتلك الأرض وتحوز النسيئة ورأس المال ومن جماهير غفيرة لا تملك غير أيديها ، وكان عليها أن تزاول الأعمال اللازمة للطبقة السالفة على أية شرائط حتى يتسنى لها أن تعيش كما كان عليها أن تصرف اليوم كله فى الكدح الآلى المطرد الممل . فهل كانت الحرية بالنسبة لهؤلاء الذين قضى عليهم أن يكافحوا الجوع سوى خدعة غادرة وسخرية لاذعة ؟ أما لو كان القصد من الحرية شيئا خلاف ذلك ، لكان إذن يتعين على الطبقات المترفة أن توافق على تقليل ساعات العمل وزيادة الأجر وتعمل على نشر التعليم المجانى المتماثل للجماهير ، كما تسعى فى جعل أدوات العمل فى متناول الجميع ، وأن تقدم مكافآت مالية للعمال الذين تثبت كفايتهم ونبل غايتهم .

ولكن لماذا يتعين عليهم أن يقوموا بذلك ؟ ألم تكن الرفاهية الغرض الأسمى من الحياة ؟ ألم تكن الخيرات المادية مرغوبة قبل كل شىء آخر ؟ لماذا ينتقصون من حظهم هم لأجل نفع غيرهم ؟ أليس على كل إنسان أن يساعد نفسه ما استطاع إلى ذلك سبيلا . وإذا ما كفل المجتمع حرية استخدام الحقوق الإنسانية لكل من توفرت فيه القدرة على ذلك ؛ فيكون حينئذ قد أدى كل ما يطلب منه . أما إذا كان هناك أى فرد يعجز بحكم ظروفه القهرية عن استخدام أى حق من هذه الحقوق ، فما عليه إلا أن ينسى حساب نفسه ولا يلوم سواه .

لقد كان من الطبيعى أن يصرحوا بذلك ، وفعلا فقد صرحوا به . وهذا الاتجاه العقلى الذى ساد الطبقات المميزة بالثراء والذى تحكم فى نظرها إلى الفقراء سرعان ما أصبح الوجهة التى انتهجها كل فرد نحو الآخر . فمنى كل إنسان بحقوقه هو وبترقية حاله دون السعى فى إعانة غيره . وإذا اصطدمت حقوقه بحقوق سواه حينئذ تكون حرب ؛ لا حرب الدماء ؛ بل حرب الذهب والخداع . حرب أدنى شهامة ورجولة من الأخرى ؛ ولكنها

تعدلها فى الدمار ، ويالها من حرب وحشية لا يألو فيها من وفرت وسائله ، وبزت قوته فى سحق الضعيف أو الأخرق سحقا لا هوادة فيه . وفى حومة هذا القتال المستعر أشربت قلوب الناس الأنانية ، والشره فى استلاب خيرات الحياة لذواتها دون غيرها . وهكذا كانت حرية الإعتقاد معولا يهدم صرح الإيمان كما كانت حرية التعليم سببا فى بث الفوضى الخلقية . أليس من شأن الناس إذا فقدوا رابطة مشتركة ، وانعدمت من بينهم وحدة العقيدة الدينية ، ووحدة الغرض ، وصارت الهناءة بغيتهم الفريدة ؛ أليس من شأنهم حينئذ أن يسعى كل منهم فى سبيله الخاص دون النظر فيما إذا كان فى ذلك عدوان على إخوانه. إخوانه إسما وأعدائه فعلا ؟ هذه هى الحال التى صرنا إليها اليوم بفضل (نظرية الحقوق) .

يقينا إن الحقوق كائنة ؛ ولكن حيث تصطدم حقوق فرد بحقوق آخر ، كيف نستطيع أن نأمل التوفيق والتسوية بينها من غير الاستناد إلى شىء أسمى من جميع الحقوق ؟ وحيث تتعارض حقوق فرد أو أفراد كثيرين وحقوق الوطن فإلى أية محكمة ندعى ؟ إذا كان الحق فى الرفاهية فى أقصى حدودها يتقسط كل شخص حى فمنذا يفض النزاع بين العامل وصاحب العمل؟وإذا كان الحق فى الحياة هو أول وأقدس حق لكل إنسان ، فمنذا يطلب تضحية هذه الحياة لمنفعة بقية الناس ؟ أستطلبونها باسم الوطن أم باسم المجتمع أم باسم فريق من إخوانكم ؟ ما الوطن فى نظر من أتحدث عنهم سوى البقعة التى نضمن فيها حقوقنا الذاتية كل الضمان . وما المجتمع سوى مجموعة من الناس الذين اتفقوا على استخدام قوة الكل لتأييد حقوق كل فرد ؟

وهل بعد أن علمت الفرد مدة خمسين عاما أن المجتمع إنما يقوم على غرض تأمينه على ممارسة حقوقه ، هل بعد ذلك تطلب إليه أن يضحى بها جميعاً فى سبيل المجتمع وأن يستسلم إذا دعت الضرورة إلى الكدح المتواصل أو السجن أو النفى باسم إصلاح المجتمع ؟ وهل بعد أن بشرته فى كل مكان بأن غرض الحياة هو الخير والهناءة، هل بعد ذلك تأمن أن ينصرف عن هذا الخير بل وعن الحياة نفسها ليحرر وطنه من الأجنبى أو أن يجهد فى إسعاد طبقة لا تربطه بها صلة ؟ وكيف بعد أن تحدثت إليه أعواما عن الفوائد والمصالح المادية تستطيع أن تحرم عليه وقد ألفى الثروة والجاه فى متناول يديه أن يمد تينك اليدين ليأخذ حظه منهما حتى ولو كان فى ذلك ضرر لإخوانه ؟

أيها العمال الإيطاليون . ليس ذلك من خواطر فكرى المجردة عن حقائق الواقع بل هو تاريخ عصرنا نحن . ذلك التاريخ الذى تسيل على صفحاته دماء الشعب . سلوا جميع الرجال الذين حولوا ثورة سنة ١٨٣٠ إلى مجرد تغيير طائفة من الأشخاص بأخرى . بل وإن شئتم مثالا فإنهم اتخذوا من جثث إخوانكم الفرنسيين الذين راحوا ضحية قتال (الثلاثة أيام) مدارج يرتقون عليها إلى عرش العظمة والسلطان . إن جميع مبادئهم إلى ما قبل عام ١٨٣٠ كانت تقوم على تلك النظرية العتيقة نظرية حقوق الإنسان لا على عقيدة الإيمان بواجباته . إنكم تدعونهم اليوم خونة مارقين ، ولكنهم فى الحقيقة لم يكونوا إلا مصدقين لنظريتهم مستمسكين بها . فجاهدوا أخلص الجهاد ضد حكومة شارل العاشر لأن تلك الحكومة كانت شديدة العداء للطبقات التى نشأوا منها حتى انتهكت حقوقهم وبالغت فى حرمانهم منها ، وحاربوا باسم الرفاهية التى لم ينعموا منها بالقدر الذى ظنوا أنه يجب أن ينعموا به . فعذب البعض بسبب حرية الفكر . ووجد آخرون من ذوى العقول الجبارة أنهم منسيون مبعدون من الوظائف التى يشغلها ناس دونهم كفاية . ثم زادتهم مظالم الشعب حرقة وغضبا ، فشرعوا يكتبون فى جرأة وإيمان عن الحقوق التى تلزم لكل إنسان . بيد أنهم لما أمنوا على حقوقهم السياسية والفكرية ، وانفتح أمامهم سبيل الوظائف ، وتحققت لهم الرفاهية التى سعوا من أجلها حينئذ نسوا الشعب . نسوا أن الملايين التى تقل عنهم ثقافة وطموحا . كانت تجاهد لتقرر حقوقا أخرى ، وتحقق هناءة من نوع آخر ، وأخلدوا إلى الطمأنينة ، ولم يعودوا يهتمون بأحد غير أنفسهم . لماذا تدعونهم خونة . أليس الأجدر أن تدعوا نظريتهم نظرية غادرة ؟

(البقية فى العدد القادم) **عاصم عبد الوهاب**